الآثار العربية في بلاد الشام
قبل الإسلام

زعم أعداءُ العروبة والإسلام: أن الوجود العربي في بلاد الشام بدأ مع الفتح العربي الإسلامي، وهم كاذبون ضالون، وقد أثبتنا في هذا الكتاب: أن الوجود العربي في بلاد الشام أصيل ومتجذر، وبينا أن الجنس العربي طبقات زمنية متوالية، وأن العرب الناطقين بالعربية الجديدة القرآنية، كانوا يحكمون بلاد الشام من قبل ميلاد المسيح، وقررنا أن مسمى العرب ليس مقصوراً على الشعب الفاتح، أو على مَنْ سبقه من القبائل والشعوب، وإنما يشمل شعوباً سبقت، تحت اسم الكنعانيين والأموريين والآراميين والسريانيين. . يجمعهم وطنٌ واحد، ولغة متفقة في الجذور، وإن اختلفت في لهجة النطق، ومن الآثار الباقية الدائمة الدالة على وجود العرب باسمهم الجامع «الجنس العربي» في بلاد الشام، أسماء القرى والمدن والأماكن. . فهذه الأسماء لم يضعها العرب الفاتحون، ذلك أن العرب الفاتحين لم يدخلوا فراغاً جغرافياً، بل قدموا بلاداً آهلةً بالسكان، عامرة بالمدن والقرى، ولكل بقعة جغرافية اسمها، ومعروفٌ أنَّ الشعب الفاتح قد يحاولُ تغيير الأسماء الجغرافية لأسباب سياسية واجتماعية، كما فعل الإغريق والرومان، عندما حاولوا تأسيس مدن تكون لهم مراكز ثقافية، أو عندما حاولوا أن يغيروا بعض الأسماء، كما فعلوا بأسماء بيروت، وجبيل، وبعلبك، وحمص، وعمواس، وبيسان، وغيرها، ولكننا لا نعرف أن العرب الفاتحين غيروا الأسماء القديمة؛ لأن هذه الأسماء لم تكن غريبة عندهم، وذلك للقرابة العرقية واللغوية، فبقيت الأسماء الجغرافية على ما كانت عليه، ولكننا ننتظر أن يكون قد طرأ عليها بعض التغيير والتبديل؛ لتوافق اللهجة العربية الأخيرة، وكان لفظها الأول آرامياً عربياً. .

قال أنيس فريحة في مقدمة «معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية»: للأسماء قيمة تاريخية؛ فإنها مصدر من مصادر التاريخ القديم، وما تعكسه لنا من النواحي

الدينيّة والثقافية والسياسية لا يقلّ أهمية عما تنقله لنا العاديات (الآثار) عن الماضي البعيد. يبدأ التاريخ المدوّن منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، ولكن معلوماتنا اليوم تتعدى هذه المدة القصيرة من تاريخ البشرية، وذلك بفضل علمين، هما: علم الحفريات، وعلم فقه اللغة. وعلم اللغة ينظر إلى الكلمة الواحدة باعتبارها متحجراً اجتماعياً قديماً، وصل إلينا منذ آلاف وآلاف السنين، وكلّ كلمة تتضمن فكرة، صورة ذهنية، تعكس لنا ناحية من نواحي التفكير الإنساني، والأسماء قديمة العهد، وكل واحد منها ينطوي على فكرة دينيّة، عاطفية، سياسية.

والدلالة «السياسيّة» للأسماء أهم الدلالات؛ لأن المؤرخ يعدها مصدراً تاريخياً قديماً، وهذا أمر لا يحتاج معه إلى إقامة دليل؛ فإن الشعوب تفقد استقلالها السياسي، وتنقرض لغتها، ويندمج الشعب المغلوب بالغالب، ولا يبقى من آثار المغلوب إلا بقايا من اللغة، وفي أسماء المدن والقرى، إذ أن هذه لا تتغير، بل تبقى شاهداً على تعاقب الشعوب، وأفضل مثال على هذا: درْس الأمكنة في فلسطين؛ فإن فيها أسماء تعود إلى ما قبل ألفي سنة قبل الميلاد، أسماء كنعانية وغير كنعانية، وكذلك الحال في سورية ولبنان، فإن فيهما أسماء سابقة للهجرات العربية التي يسمونها خطأً (السامية)، وأكثرها ينحصر في الأسماء الغامضة التي لا نستطيع تفسيرها على أساس اللغات العربية، وهناك أسماء آرامية وأسماء عربية صرفة (العربية الأخيرة)، غير أن السائد فيها: الأسماء الآرامية؛ لأن هذه البلاد ـ سوريا الطبيعيّة ـ كانت بلاد آرام.

ولما كانت أسماء المدن والقرى ذات دلالة تاريخية، اتخذها اليهود وسيلة لتزييف التاريخ، فأخذوا يطلقون الأسماء الواردة في «التوراة» على المدن والقرى التي احتلوها؛ لمحاولة إثبات أن لهم حقاً تاريخياً فيها. والواقع أن هذه الأسماء هي أسماء عربية كنعانية قديمة، وهي التي كانت سائدة قبل زمن موسى، وقبل زمن إبراهيم، وأدخلها اليهود في قصصهم التوراتي المخترع؛ لمحاولة خلق أو اختلاق تاريخ قديم. هذه الأسماء العربية للمدن والقرى في فلسطين وفي بلاد الشام بعامة هي الآثار الباقية المنقوشة على صفحة كل شبر من أرض الشام، وهي الشاهد الأثريّ الذي لا يستطيع المؤرخون اليهود، ومَن اتبع طريقهم من الأوربيين، أن يقرؤوه على غير وجهه

الصحيح، إنه الاسم العربي وضعاً واشتقاقاً. ولا تلتفتنَّ إلى المعاجم والموسوعات، مثل «قاموس الكتاب المقدس» وغيره من المعاجم والموسوعات المكتوبة من منظور يهودي. . فالعديد من الأسماء التي يزعمون أنها «عبريّة» كانت تحمل أسماءً عربية كنعانية قبل أن يُوجد يهود على وجه الأرض، وقد كتبوها في كتابهم المسمى «التوراة»، وربما دخل عليها بعض التحوير، لكنها في الأصل أسماء عربية كنعانية، أو كانت في لهجة من لهجات العربية العتيقة.

وقد قرر أكثر علماء اللغات العربية العتيقة (الساميّة) أن ما يُسمى «اللغة العبرية» جاءت على هامش اللغة الكنعانية، وأجمع علماء اللغات العربية (السامية) على أن أقدم هذه اللغات هي اللغة العربية القديمة، والأكدية، والكنعانية، وأن اللغة العربية الأخيرة هي أقرب اللغات إلى العربية الأُم العتيقة التي تفرعت عنها اللهجات.

قال أنيس فريحة في مقدمة «معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية»: اعتبرنا «اللغة العبرية» لهجة كنعانية، وذلك بشهادة اليهود أنفسهم؛ إذ كانوا يسمون لغتهم: «اللسان الكنعاني»، وحرفياً: «شفة كنعان»، هكذا ورد في سفرْ أشعيا / 19/ 18. وحوادث التاريخ وقرائن الأحوال والشبه اللغوي الشديد بين اللهجتين، جميع هذه تدعم النظرية؛ فإن اليهود الذين أتوا من البلاط الفارسي ـ في القرن الرابع قبل الميلاد ـ جاؤوا بلاداً آهلة بالسكان عامرة بالمدن والقرى، وأنت إذا قرأت بين سطور التاريخ الذي دونه اليهود ـ ومن وجهة نظرهم الخاصة إلى التاريخ ـ تستطيع ـ مع تعصبهم البادي للعيان وتحيزهم الظاهر ـ أن ترى بيُسر أن أساتذة اليهود في الحضارة والفنون، كانوا سكان البلاد، فلا غرو أن تكون لغة البلاد الأصلية قد تغلبت على لغة هؤلاء الغرباء، فإذا ذكرنا الجذر (العبري) ـ والكلام لأنيس فريحة ـ، وإذا نحن اعتمدنا العبرية في تحقيق المعنى الأصلي، فإنما نعني أن هذا الجذر الذي نعده الآن (عبرياً) هو في الحقيقة جذر كنعاني، والكنعاني هو الفينيقي. .

يقول أنيس فريحة: ولكن بما أن الكنعانيين وإخوانهم الفينيقيين لم يتركوا لنا آثاراً كتابية كما ترك لنا «اليهود»؛ فإننا نعتمد «العبرية» في التعرف إلى لغة البلاد الأصلية (الكنعانية ـ الفينيقية).

قال أبو أحمد: لقد أصاب أنيس فريحة في نفي التأثير اليهودي في الإقليم اللبناني، ولكنه كان منحازاً للتيار التوراتي عندما جعل «العبرية» مفتاحاً لفهم النصوص الكنعانية؛ لأنه أعطى العبرية الأقدميّة، والصفاء اللغوي، وهذا خطأ نتج عن سببين:

الأول: تحيّزه لليهودية، بسبب مذهبه الذي يقلل من شأن العربية بوصفها وعاءً للتراث الإسلامي.

والثاني: تعمقه في دراسة «العبرية»، وجهله بأصول العربية...

ولو تضلع من اللغة العربية كما وصلتنا من خلال نصوص التراث، لجعل العربية الإسلامية أساساً لفهم اللهجات العربية العتيقة كما يظهر في الفقرة التالية:

• **اللغة العربية هي الأُمّ لجميع لهجات الأقوام والشعوب العربية (السامية)[1]:**

فقد أجمع الباحثون أن القبائل والشعوب العربية التي عاشت في الجزيرة العربية، كانت كلها تتكلم لغة واحدة، هي اللغة العربية الأصلية، قبل أن تتفرق، ثم تفرع من هذه اللغة عدة فروع، انطبع كلٌّ منها بطابع المكان والبيئة، على مقتضى ناموس الارتقاء، وهكذا تطورت اللغة الأصلية تطور الأقوام الناطقة بها في مواطنها، حتى أضحت هذه اللهجات مغايرة لأصلها، ولكنها مهما تباعدت بألفاظها وتشعبت تراكيبها، فإنها بقيت محتفظة بالخصائص الأصلية التي تتميز بها؛ لأنها ترجع إلى أصل واحد مشترك.

وتتميز صفات اللهجات العربية في كونها مؤلفة من أصول ثلاثية الأحرف، وتمتاز بحصول معظم الاشتقاق بواسطة تغيير الحركات، وعلى هذه الحركات يتوقف نوع الدلالة... ولما كان العلماءُ قد صاروا يعتمدون على أصل اللغات في تعيين صلات الأقوام بعضها ببعض، فقد قسم بعض علماء اللغات (اللهجات العربية) إلى أربع مجموعات هي:

المجموعة العربية الشرقية: ومنها الأكدية، والبابلية، والآشورية.

---

(1) نذكر «الساميّة» بعد العربية، للإشارة إلى أن الاسم الصحيح هو العربية، وأننا نرفض «الساميّة»؛ لأنها لا تخبر عن واقع تاريخي حقيقي، وإنما تمثل «أسطورة وخرافة». ولابدَّ أن ينبذ العربيّ «الساميّة»، ويعوّد قلمه ولسانه على استعمال العربية.

والمجموعة الشمالية: ومنها العمورية، والآرامية.

والمجموعة الغربية: ومنها الكنعانية، والفينيقية، والمؤابية، والعبرية.

والمجموعة الجنوبية: ومنها المعينية، والسبئية، والأثيوبية، والأمهرية، والعربية.

ويرجح عدد من الخبراء أن اللغة التي يتكلم بها بدو الجزيرة العربية ـ في القرن العشرين ـ هي أقرب جميع اللهجات إلى اللغة العربية الأصلية التي كان يتكلم بها أبناء الجزيرة، قبل أن تنفصل لهجاتهم في مواطنهم المتباعدة؛ وذلك لأن هؤلاء بقوا منعزلين في صحرائهم دون أن يختلطوا بالأقوام الأخرى الغريبة في قومياتها ولغاتها.

وفي هذا المعنى قال «أولمستيد» في «تاريخ فلسطين»: إن البدو العرب كانوا أول من تكلم العربية (السامية)، وإذا أردنا أن نتفهم الخصائص الأصلية لهذه المجموعة من اللغات العربية على حقيقتها، فعلينا أن نتجه إلى العربي ابن البادية السورية الذي يجوب شمال جزيرة العرب؛ لأن هؤلاء وحدهم حافظوا على العادات والتقاليد القديمة، دون أن يطرأ عليها أيّ تغيير.

وممن أيَّد ذلك من المستشرقين الباحث عبد الله فلبي في كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام»: إن اللغة العربية التي يعترف الخبراء في كونها أقرب من جميع اللهجات العربية إلى اللغة الأُم الأصلية التي اشتقت منها جميع هذه اللهجات هي ـ على أغلب الاحتمالات ـ أقدم لغة في العالم ما زالت حيّة حتى يومنا هذا.

وقال جواد علي في كتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (ج1): وبالجملة إن هناك جماعة من المستشرقين ترى أن اللغة العربية (المدونة في المعاجم العربية) على حداثة عهدها بالنسبة إلى اللهجات العربية الأخرى، هي أنسب اللهجات العربية الباقية للدراسة، وأكثرها ملاءمة للبحث؛ لأنها لغة لم تختلط كثيراً باللغات الأخرى، ولم تتصل باللغات الأعجمية قبل الإسلام، فبقيت في مواطنها المعروفة صافية، أو أصفى من غيرها في أقل الأحوال، ثم إنها حافظت على خواص العربية القديمة. . على حين فقدت هذه الخاصة المهمة أكثر تلك اللهجات، ولهذه الأسباب وغيرها رأوا أن دراستها تفيد كثيراً في الوقوف على خصائص العربية القديمة ومزاياها.

وقال «نولدكه» الخبير في اللهجات العربية القديمة: «إنه لمن الضروري عند القيام بدراسة مقارنة بين اللغات (الساميّة) العربية، البدء باللغة العربية (يريد العربية المستعملة اليوم)، وذلك بأن ندوّن خصائصها ومميزاتها وقواعدها، وطريقة نطق ألفاظها، وما إلى ذلك، ومن ثمَّ مقارنة هذه النتائج مع ما يقابلها في بقية اللغات العربية (الساميّة) حتى نقف على ما بين تلك اللغات من مفارقات ومطابقات» [عن «تاريخ العرب قبل الإسلام» لجواد علي، ج7].

وجاء في كتاب «تاريخ العرب» من تأليف (حتّي، وجرجي، وجبور): إن السبب في كون عرب الجزيرة، ولاسيما البدو[1] بنوع خاص، خيرَ مَنْ يمثل السلالة العربية، من النواحي البيولوجية، والنفسية، والاجتماعية، واللغوية، يعود إلى انعزالهم الجغرافي، واتساق الحياة المطرد في الصحراء، فكأنَّ النقاوة السلالية هي المكافأة التي تمنحها البيئة المقفرة الشديدة النكبات، كتلك التي في أواسط جزيرة العرب. ولقد أصاب العرب في تسمية بلادهم: «جزيرة العرب»؛ فهي جزيرة حقاً، تحيط بها المياه من جهاتها الثلاث، والرمال من جهتها الرابعة[2]، وتُعدُّ هذه الجزيرة

---

(1) انظر الحاشية التالية.

(2) في هذا الوصف مفهومات غير صحيحة:

الأول: وصف البدو بأنهم منعزلون جغرافياً، وهذا مبني على الفهم الخاطئ لمعنى البدو والبداوة؛ والخلط بينهم وبين «الأعراب»، فالبدو هم الذين يسكنون في أطراف المدن، أو في أطراف الريف والقرى، واتصالهم بالحواضر لا ينقطع، واتصال الحواضر بهم موصول؛ لاعتماد البادية على الحاضرة في تسويق إنتاجها وشراء حاجياتها.. وربما ذهب أهل الحواضر إلى البادية لشراء إنتاجهم...

أما الأعراب، فهم يسكنون في عمق الصحراء، ولا يتصلون بالحواضر إلا قليلاً، وهم الذين كان اللغويون يأخذون اللغة عنهم، يذهبون إليهم في مضاربهم.

الثاني: قولهم: تحيط المياه بها من جهاتها الثلاث، والرمال من جهتها الرابعة. وهذا التحديد يخرج بلاد الشام من جزيرة العرب، ويجعل شمال السعودية نهاية بلاد العرب. والصحيح ما قررناه أن بلاد الشام جزء من جزيرة العرب.

الثالث: يُفهم من السياق أن العرب كانوا معتكفين داخل بلادهم، لا يتصلون بالجيران، وهذا خطأ، بدليل الرحلات التجارية التي كانت تذهب إلى بلاد الشام، ووجود القبائل العربية في جميع بلاد الشام والعراق.. فهذه الرمال، وهذه الصحارى الواسعة لم تكن تمنعهم من السفر والترحال، بدليل =

مثلاً للعلاقات التي لا تنقطع بين السكان والتربة، ولسنا نعرف فاتحاً أو غازياً نجح في اختراق الحواجز الرملية لهذه الجزيرة، وفي تثبيت قدميه في تلك البلاد. أجل لقد ظلّ سكان الجزيرة كما هم طوال أزمان التاريخ.

وشهادات علماء اللغة من العرب والأجانب، على أن اللغة العربية، التي نتكلمها اليوم، المسجلة في المعاجم وكتب التراث العربي، هذه اللغة هي اللغة الأم، أو أقرب اللهجات العربية إلى العربية الأم، وإذا أردنا أن ندرس الآثار الباقية في بلاد الشام، لنعرف نسبتها، فإننا نعرضها على قوانين اللغة العربية، فإن وافقتها، أو كانت قريبة منها، فإنها تكون عربية. وقد قيل: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير. . و«الأثر» في بحثنا هذا هو أسماء المدن والقرى والأماكن، وإذا ثبت أن هذه الأسماء عربية الأصول، ولم يضعها العرب الفاتحون، وإنما كانت سابقة على الفتح، وأقروها في دواوينهم، فمن أين جاءَت هذه الأسماء؟ من المؤكد أن هذه الأسماء العربية تدلُّ على مسير الجنس العربي في هذه البلاد، وتعميره لها، واتساع انتشارهم، وتعدد أماكن إقامتهم؛ لتعدد الأسماء التي تميز الأماكن. فالأسماء ذات الجذر العربي، تعمّ بلاد الشام كلها، بل إن جلّ أسماء المدن والقرى والأقاليم ذات جذر عربيّ، وتُفَسَّرُ معانيها بالرجوع إلى الاشتقاق العربيّ، أو على وجه من وجوه اشتقاق إحدى اللهجات العربية العتيقة. .

• ولستُ بسبيل بحث إحصائي، ولكنني أذكر أمثلة من طول البلاد وعرضها، وتشمل أقاليم الشام كلها.

الأردن: كلمة عربية آرامية بمعنى النازل، والمتدهور، والجري السريع، والوارد المنحدر. وهذا التفسير يناسب الطبيعة الجغرافية لمجرى نهر الأردن؛ حيث ينحدر من أعلى بقعة، إلى أخفض بقعة في الغور. وجاء في معجم «لسان العرب»، مادة:

= جيوش الفتح التي انطلقت إلى جميع الجهات البريّة. بل كانت لهم معرفة بالحبشة عبر البحر، وكانت لهم هجرة إليها.

ومن أسباب الصفاء العرقي واللغوي: أن بلاد الحجاز ونجد لم تكن مطمعاً للغزاة؛ لأنها لم تكن ذات جدوى اقتصادية لهم.

«ردي» في تفسير «المترددية»: هي التي تقع من جبل، أو تطيح في بئر، أو تسقط من موضع مشرف فتموت. والتردي: التهور في مهواة. وردي فلان في القليب: يردى، وتردّى من الجبل ترديا. و«ردت» الخيل رديا، ورديانا: رجمت الأرض بحوافرها في سيرها، وعدوها.

فيحتمل أن يكون من جذر «ردي» للوصف الجغرافي لمجرى النهر. وقد يكون من جذر «ورد» الماء، والاسم «المورد». والنون في الاحتمالين، تكون للتكثير.

ولبنان: من جذر عربي مشترك «لبن»، ويفيد البياض.

سورية: تحريف كلمة «آشور»، وهي «آسور»، وهي من جذر «أزر» و«آزر» والأَزْر في اللسان العربي: القوةُ والظهر. وهو بالسين المهملة أيضاً: «الأَسر» بمعنى القوة، وأُسرة الرجل: عشيرته ورهطه الأدنون؛ لأنه يتقوّى بهم.

وفلسطين: إذا لم يكن اللفظ ذا جذر عربيّ، فإنه صيغ صياغة عربية، سواء أكان بلفظ «بلستيم»، أو «فلسطين»، فالزيادة على «بلست» للدلالة على الجمع والكثرة.

وأورشليم: الاسم الكنعاني لمدينة القدس، مركب من جزأين: أور + شليم. وشليم: من جذر «سلم» سالم، أو السلام. وأور: بمعنى بلد. واللفظان في لسان العرب الجديد. وهناك تفسير آخر لهذا التركيب، وهو أن «أورشليم» تلفظ همزته ياءً «يروشاليم»، وهو محرف من «يرث»؛ أي: «يرث سالم»، أو «إرث سالم»، أو السلام.

ومن أسمائها: «صهيَون»، وهو لفظ عربي بمعنى «الصهوة»، وهو المكان المرتفع.

ودمشق: مدينة قديمة وهي محرفة من «دار مسقي»؛ بمعنى: الأرض المسقية الكثيرة المياه.

وبيروت، والبيرة: بيروت في لبنان، والبيرة في فلسطين من جذر عربي جامع هو «البئر».

وصور في لبنان: اسم عربي كنعاني (فينيقي) وآرامي: بمعنى الصخر، وتمثال الله المنقوش على الصخر. وفي العربية الجديدة فعل «صور»، والصورة: الشكل. والتصاوير: التماثيل.

ومدينة «صيدا»: مدينة قديمة جداً من جذر «الصيد»، صيد السمك وغيره.

هذه أمثلة قليلة، من معجم واسع من الأسماء ذات الجذر العربي، وإنما ذكرت أسماء الأقاليم والعواصم وبعض المدن الكبرى. . أما القرى فإنني أُؤكد أن 90٪ منها ذات أصل عربيّ قديم، قبل أن يدخل العرب المسلمون، وقبل ميلاد المسيح. وانظر في هذا السبيل: «معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية» لأنيس فريحة، و«معجم أسماء المدن والقرى الفلسطينية» وتفسير معانيها لمؤلف هذا الكتاب «محمد محمد حسن شراب». .

وهناك «المعجم الجغرافي للقطر السوري»، ويوجد فيه تفسير لبعض الأسماء. .

أما الآثار التي وُجدتْ في جميع طبقات الأرض، وعلى وجه الأرض، فهذه كلها ناطقة بالعروبة الأبدية. . كما قال أبو العلاء المعري:

صاح هذي قبورُنا تملأ الرحـ ـبَ فأين القبور من عهد عاد
خفِّفِ الوطءَ ما أظن أديم الـ أرضِ إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهـ ـد هوانُ الآباءِ والأجداد